PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(8):1063-1077
ISSN: 1553-6939

Intervention by deletion and its textual effects- A case study in the edition of Al-Nafha Al-Muskiyyah by Al-Suwaidi

Amine KADRI[1]

[1]Abu Al-Qasim Saadallah University – Algiers 2 (Algeria)

The E-mail Author: amine.kadri@univ-alger2.dz

Received: 07/04/2024 **Published: 27/08/2024**

Abstract:

The methodological choices and decisions made by the manuscripts editor have effects on the edited text, either at the level of its production or at the level of its reading. The more the editor interferes in the text with any type of change, the more serious the results will be. In this article, we want to study the results of the interference by deleting part of the text on its understanding and interpretation, through the model of the edition of Imad Abdul Salam Raouf on the book Al-Nafha Al-Miskiyya fi Al-Rihlah Al-Makkiyya by Abdullah Al-Suwaidi.

Keywords: manuscripts edition, text linguistics, deletion, Al-Nafha Al-Miskiyya, Al-Suwaidi.

التدخل بالحذف وآثاره النصية-دراسة حالة في تحقيق النفحة المسكية للسويدي

أمين قادري[1]

[1]جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر 2 (الجزائر)

الملخص:

تؤدي الاختيارات والقرارات المنهجية التي يتخذها المحقق إلى آثار في النص المحقق إما على مستوى إخراجه، وإما على مستوى كيفية قراءته. وعلى قدر تدخل المحقق في النص بأي نوع من أنواع التغيير تكون النتائج أكثر عمقا. ونريد أن ندرس في هذا المقال نتائج التدخل بحذف جزء من النص على فهمه وتأويله، من خلال نموذج تحقيق عماد عبد السلام رؤوف على كتاب النفحة المسكية في الرحلة المكية لعبد الله السويدي.

الكلمات المفتاحية: تحقيق المخطوطات، لسانيات النص، الحذف، النفحة المسكية، السويدي.

مقدمة:

إذا أردنا أن نتحدث عن أبرز التطورات التي شهدها البحث اللساني في القرن العشرين-بطوله وكثرة محطاته- فلا شك أن محطة الانفتاح على دراسة النص باعتباره موضوعا للبحث، لا مجرد مدونة للمعاينة أو الإحصاء؛ ستكون من أبرز المحطات، فقد سمحت هذه المحطة بحل الكثير من المشكلات

المستعصية على التحليل اللساني البنوي، كما أنها أنقذت اللسانيات من المأزق المعرفي الذي كادت أن تختنق فيه مع بداية الخمسينيات. وقد صاحب هذا الانفتاحَ على المستوى النصي انعطافٌ جادّ ومنتظم على قضايا استعمال اللغة وآثارها في العالَم. فسار البحثان النصيُّ والتداوليُّ جنبا إلى جنب، إلى درجة أن مباحثهما تداخلت وصارت تعد أصيلة في كل واحد منها، كما هو شأن نظرية أفعال الكلام التداولية داخل البحث النصي، ونظرية الإحالة النصية داخل البحث التداولي.

وكان من أهمية علوم النص وفاعليتها أن اقتحمت بشقها التطبيقي علوما وتخصصات كثيرة، فأسهمت فيها إسهامات معتبرة وأعانتها على تحقيق قفزة معرفية نوعية، كانت لها تبعاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بل السياسية في كثير من الأحيان، ومن أهم هذه الميادين: تعليمية اللغات والترجمة والعلاج الآلي للغات الطبيعية، وتحليل الخطاب بتفرّعاته المختلفة. ويهمنا في دراستنا هذه أن نلفت النظر إلى أحد التخصصات التي استفادت من هذا الإسهام في العالم الغربي، وهو تخصص "علم المخطوطات"، بفروعه المختلفة، ولا غرو، فإن دراسة المخطوط في أوروبا كانت دوما متوسلة بالبحوث الفيلولوجية، بل كانت أحد أبواب الفيلولوجيا نفسها، فلا عجب حينئذ أن يستفيد هذا الميدان من الدراسات النصية الحديثة إذا عُلم ما بين لسانيات النص والفيلولوجيا من الترابطات التاريخية التي كشفها مؤرّخو الدرس اللساني[1].

وكما أن علوم النص، وخصوصا ما تعلق بلسانيات النص تعد اليوم أداة بحثية عملية في تحقيق المخطوط، وحاسمة في ترتيب النص وتفقيره ومعالجة الخروم والأسقاط وغير ذلك من المظاهر النصية، فإن لها دورا كذلك في نقد التحقيق، واكتشاف أنواع الاختلال والنقص الذي مس عمل المحقق على النص، وكان له أثر في "نصيّته"، مما سيسْتَتبِع ضرورةً آثارا في تأويله. وعملا بمبدأ أن الاختلال هو الذي يكشف البناء، فسنحاول أن نجعل من الجانب النقدي في تحقيق المخطوط كشّافا للجانب البنائي منه، وأن نقارب بعض المفاهيم النصية في تحقيق المخطوطات من منطلق الآثار المرصودة لعدم مراعاتها، وذلك من خلال نص نموذجي هو كتاب "النفحة المسكية في الرحلة المكية" لأبي البركات عبد الله بن حسين السويدي البغدادي(ت1174ه)، الصادر سنة 2003 بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف عن المجمع الثقافي بأبو ظبي، بدولة الإمارات العربية المتحدة.

ولا بد أن نعترف أن اعتماد هذه المدونة لم يكن اختيارا لها بقدر ما كان ظفرا بها، بل إن ملابسات الاختلال النصي في المدونة هي التي أوحت بالفكرة النظرية للدراسة، ونص الرحلة –بما هو نصّ سردي- يسارع بالقارئ إلى افتراض الفجوات النصية، أكثر من أي نص آخر ذي نمط وصفي أو إخباري أو تفسيري، ونتج عن ذلك مجموعة من النتائج، منها الصعوبة النسبية في تلخيصه، بإسقاط أجزاء منه. وكلما كان الجزء الساقط أكبر؛ كانت نتائج الاختلال النصي أفدح، لتمزق عدد أكبر من الروابط النصية على مستوى الاتساق والانسجام.

1-إطار الدراسة:

يمكن أن نحدد لدراستنا هذه إطارين نتحرك داخلهما، وهما تحقيق المخطوطات باعتباره تخصصا صناعيا نحتكم إلى قواعده في إخراج النص وتهيئته للقراءة وفق مبادئ الطباعة العصرية، والإطار الثاني هو لسانيات النص، باعتباره تخصصا علميا يقارب مفهوم النص وشروطه اللغوية والتواصلية والاجتماعية، ويكشف عن بنيته ومكوناته، وبالتالي فقد يسهم في كشف الخلل الذي يتعرض له النص في أثناء إعادة إنتاجه. وسنحاول أن نلخص في هذا العنصر من الدراسة أهم المفاهيم والإجراءات التي نحتاج إليها من كلٍّ من الإطارين سابقي الذكر، مما سيدخل مباشرة في تحليلنا للحالات المختارة.

أ-تحقيق المخطوط: ارتبط تحقيق المخطوط؛ بالمعنى المتعارف عليه حاليا؛ وكما يرى عباس هاني الجراخ(2012، ص19) بنشأة الطباعة، إذ كان الغرض منه هو توحيد شكل الكتابة الذي سيمكّن القراء من تجاوز مشكلات اختلاف الخطوط، وعوارض النساخة اليدوية، غير أن أهداف هذا الميدان لم تتوقف عن التنامي بفعل التطوّرات التي عرفها تداول الكتب المخطوطة، والآفات التي كانت تتعرض لها. إن بقاء الكتاب تحت سلطة النساخة اليدوية كان يبتعد به تدريجا عن النص الأصلي، حتى لو لم يكن ذلك من غاية النساخ وقصدهم، فإن الآفات الزمنية كانت أقوى وأثرها كان أوضح وأعمق خصوصا مع تمادي الزمان.

وفي ظل التناقص المستمر للمخطوطات لأسباب مختلفة؛ فقد صارت إعادة إصدار ما بقي من تراث الإنسانية واجبا علميا وأخلاقيا وحضاريا، وصار تجميع التراث المخطوط في هيئات رسمية متمرّسة بحفظه ودراسته ضرورة من الضرورات. فحاولت الهيئات العلمية المختلفة المتخصصة في حفظ المخطوطات أو التابعة لمؤسسات علمية كالجامعات والأكاديميات والمراكز البحثية والثقافية والدينية، أن تضاعف الجهد للحصول على أكبر قدر من هذه المخطوطات عن طريق الشراء أو الاستنساخ أو التصوير(في مرحلة لاحقة)، مسابقة بذلك آفات سرقة المخطوط والاتجار غير الشرعي به، فضلا عن استنقاذه من عوارض التلف أو الإتلاف.

وبفعل التقدم والاهتمام الذي شهده ميدان التحقيق، واستنادا إلى الإرهاصات التراثية لحفظ النص التراثي عند العلماء وشرح النصوص والنساخة؛ صارت أهداف تحقيق المخطوط أوضح وتقنياته أدق، ومناهجه أضبط، وحدثت مثاقفة علمية كبيرة بين الأمم المتملكة لثقافة الكتاب في هذه الطرائق. وانتقل المتخصصون في التحقيق كما يشير عبد الهادي الفضلي(1982، ص09) من ممارسة التحقيق إلى تأصيل التحقيق، وذلك من خلال جهودهم في وضع استراتيجيات وخطط عملية تصاحب المحقق من أول اختيار المخطوط إلى غاية إخراجه، هذا بالإضافة إلى جهود المكتبيين في ميدان حفظ المخطوطات وصيانتها ومعالجتها وفهرستها.

يمكن أن نقول إن مفهوم تحقيق النصوص-باعتباره مفهوما وظيفيا- يتحدد من خلال أهدافه، وهو ما نستطيع استشفافه من تعريف بشار عواد معروف(2004) له بقوله: "يهدف علم تحقيق النصوص إلى تقديم نص صحيح مطابق لما كتبه مؤلفه، وتوثيقه نسبة ومادة، والعناية بضبطه وتوضيح دلالته التي قصدها مؤلفه"(ص341). فهذا التحديد يقدم لنا ثلاث مهمات يضطلع بها التحقيق، وهي:

أولا: تقديم نص "صحيح ومطابق لما كتبه مؤلفه"، وإن كان اصطلاح "المطابقة" اصطلاحا نسبيا، ولا نحسب أن بشار عواد يريد به المطابقة المطلقة، لأنها في دائرة المتعذر، ولو كان المخطوط المشتغل عليه بخط مؤلفه، فكلما أوغل المخطوط في الزمان كانت العوارض الزمنية أعمل فيه وأشد تأثيرا. وإنما يطلب من المحقق أن يقدم لنا نصا يقترب بقدر الإمكان من النص الأصلي.

ثانيا: توثيق نسبته إلى مؤلفه، بالتحقيق التاريخي لنسبة التأليف إلى مؤلفه، ثم بالتحقيق المادي بإثبات أن المخطوط الذي بين يدي المحقق هو فعلا الكتاب الذي المنسوب إلى المؤلف. وتوثيق مواده مضامينه، عن طريق فن التخريج.

ثالثا: إخراجه في صورة تحقق المقروئية بالوضوح والضبط اللازم، وتحقق قدرا من الفهم بشرح بعض المواضع منه التي قد يتعثر القارئ في فهمها.

ب-لسانيات النص وتحليل الخطاب: من المؤكد أن لسانيات النص قد قفزت قفزة كبيرة بآليات فهم النصوص، بل بالإدراك النصي نفسه. فقد كان البحث عن المعنى في العلوم القديمة في كثير من

الأحيان يتعالى عن طريقة تأسيس النص لهذا المعنى، لصالح المعنى الذري(التجزيئي)، أو لصالح المعنى السياقي البحت. وحين بدأ الاشتغال على النص باعتباره موضوعا للمعرفة(راستيي، 2010، ص89)، كانت الاهتمامات الأولى منطلقة من إشكالات لسانيات الجملة، فركزت على قضايا الترابط بين الجمل خصوصا، فكانت قضايا الاتساق والانسجام، كما ركزت على قضايا التواصل، فكانت مسائل الإعلامية والمقامية والمقبولية وغيرها. غير أن أهم الأعمال المقدمة في لسانيات النص كانت تركز على ما يمكن تسميته "السياقات القريبة"، في حين أن الكثير من قضايا "السياقات البعيدة"(كالعلاقات النصية بين فصول كتاب أو رواية مثلا) مطروحة في علوم أخرى كالنقد الأدبي والدراسات السردية.

ومع ذلك؛ فإن لسانيات النص وتحليل الخطاب قد عرفت تطورات كبيرة منذ تأسيسها حاولت من خلالها أن تقارب نصوصا أطول وأعقد من حيث تركيبتها، فالتعقيد لازم من لوازم الطول في الغالب. وكانت أعمال تون فان دايك(1977) وجان ميشال آدام(1976، 1990، 2005) في لسانيات النص خاصة، وأعمال دومينيك مانغونو(1976) وسرفاتي(1996) وغيرهم في مجال تحليل الخطاب(الأدبي خاصة) محطات كبرى في هذه المسيرة نحو النص الموسع وفهم منطق بنائه، كل بحسب رؤيته وخلفياته.

وسنعتمد في دراستنا هذه على مجموعة من الآليات المؤسسة في لسانيات النص، في مستواها النصي البعيد، منطلقين من مفهوم مدمج للنص يقترحه كلاوس برينكر، ومحاولين فهم تداخل أجزائه، عن طريق الإحالة القبلية والبعدية. وسنجعل ذلك طريقة تجريبية لإدراك الاختلالات التي تمس النص عند تمزق هذه الروابط.

2-إشكالية الدراسة:

يسم مصطلح النص في نظر كلاوس برينكر(2010، ص34): "تتابعا محدودا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها، وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية مدركة". فالنص بهذا المفهوم يحيل إلى كلّ متماسك، يشكل نظاما داخليا مكونا من عدد من الوحدات، ومنتظما وفق عدد من العلاقات، وتبقى خطية النص هي سطحه الذي منه ننفذ إلى نظامه المعقد، وبالتالي فإن التغيرات التي تمس هذه الخطية تمس منفذ الانتظام نفسه، وتنقلنا من نظام نصي إلى نظام نصي آخر. فالنص الذي يجري مؤلفه عليه مجموعة من التغيرات يحتفظ بالهوية النصية في الإطار القانوني أو الإشهاري فقط، وأما في الإطار التحليلي فنحن حقيقة أمام نص مختلف. وعلى قدر ما تكون التغيرات عميقة من حيث القيمة، وواسعة من حيث المساحة، يختلف النظام النصي، ببعديه البنوي المحض والتواصلي.

وإذا كان النص من حيث الشكل-على الأقل- ملكا لمؤلفه، فإن ثمة قواعد أخلاقية بل قانونية في بعض الأحيان تحمي هذا الحق الأدبي والقانوني للمؤلف، تتجلى في طرائق التلخيص والاختصار والاقتباس والإحالة المقررة في منهجية كتابة البحوث العلمية، كما تتجلى في النصوص القانونية التي تنظم ملكية المؤلف للنص والعقوبات المترتبة على السرقة الأدبية. ولكن يظهر أن هذه المساءلات الأخلاقية والقانونية تسقط بالتقادم في حق الأموات في مجالنا الثقافي العربي، حيث نجد أن النشر التراثي لا يتسم بذات القدر من الصرامة والحسم في التعامل مع التحويرات التي تمارس على النصوص الأصلية، وكأن المسألة متروكة للمتابعة العلمية فقط من خلال أنشطة نقد التحقيق التي تصدر عن أفراد أو مؤسسات علمية.

ولكن قبل الحديث عن الأبعاد القانونية للتدخل في بنية النص، لا بد من التأسيس العلمي لآثار هذا التدخل في قيمة النص ودلالته ورسالته، إذ إن كل تشريع قانوني لحماية الحقوق يجب أن يستند أولا

إلى معطى فعلي عن وقوع الضرر المادي أو المعنوي. وسنحاول في دراستنا هذه أن نختبر جانبا من هذا الموضوع من خلال دراسة الاختلال النصي الناشئ عن السقط في تحقيق المخطوط. وقد اخترنا لدراستنا هذه مدونة نراها نموذجية، لاحتوائها على الحالتين، ولكونهما حالتين بارزتين من حيث القيمة ومهمتين من حيث الحجم. وتتمثل مدونتنا في كتاب: "النفحة المسكية في الرحلة المكية" لعبد الله بن الحسين بن مرعي السويدي البغدادي(ت1174ه)، الصادر عن المجمع الثقافي بأبو ظبي سنة 2003 بتحقيق عماد عبد السلام رؤوف(ت2021م).

وقد شهدت هذه الطبعة إسقاط المقدمة الثانية من المقدمتين اللتين وضعهما السويدي بين يدي الرحلة، وهو إسقاط ناشئ عن قرار المحقق كما سنوضحه في القسم الأول من الدراسة. وعليه؛ فإن سؤال الدراسة هو التالي: ما أبعاد الاختلالات النصية الناشئة عن السقط المقصود في تحقيق المخطوط؟ وما آثارها في فهم النص؟ وللإجابة عن هذا السؤال سنتوسل مدونتنا المذكورة أعلاه متنًا للعمل، وسنعتمد منهجا تحليليا نقديا في إطار لسانيات النص وتحليل الخطاب، لتقييم: الخيارات المنهجية في تحقيق المخطوط المتعلقة بالحذف والإسقاط.

3-الاختلال النصي الناشئ عن الحذف.

يندرج كتاب "النفحة المسكية في الرحلة المكية" لعبد الله بن حسين السويدي ضمن فن الرحلات الذي يملك أنطولوجيا كبيرة في الكتابة التاريخية والجغرافية العربية الإسلامية، وتتوزع الرحلات في التراث العربي على أقسام وأصناف متعددة، تحكمها الأشكال أحيانا، والأغراض أحيانا أخرى، فنجد الرحلات الاستكشافية والرحلات الدبلوماسية والرحلات الدينية والرحلات العلمية، ونجد وفق منظور كتابيّ محض: الرحلات الأدبية، والرحلات السردية، والرحلات العلمية(الموافي، 1995، ص33). هذا؛ مع الإقرار بأن هذه التصنيفات تستند إلى الميزة الغالبة، لأن طبيعة الرحلة العربية أنها تحمل قدرا كبيرا من التداخل الأسلوبي والنمطي-النصي بل الأجناسي في بعض الأحيان.

وتجمع رحلة السويدي بهذه الاعتبارات بين عدة أصناف، فهي من حيث الأساس-وكما يشير إليه عنوانها- رحلة دينية من رحلات الحج، أو "الرحلات الحجازية" نسبة إلى الحجاز الذي هو محل البقاع المقدسة: مكة والمدينة، وهي كذلك رحلة استكشافية من جهة أن مؤلفها السويدي استغلها لزيارة أقطار لم يسبق له زيارتها، واهتم بتسميتها ووصفها، وكذلك فإن الطابع العلمي واضح بجلاء في رحلة السويدي من حيث المباحثات والمراسلات العلمية التي حرص على توثيقها في متن الرحلة. ومن أجل هذا التداخل الكبير بين الأهداف والوظائف، فإن نسبة تعقد النص ترتفع تبعا لذلك، وتجعل منه نسيجا شديد التواشج والتداخل.

وقد بنى السويدي رحلته على مقدمتين ومتن، حيث تضمنت المقدمة الأولى ترجمة المؤلف لنفسه، وتضمنت المقدمة الثانية سردا لمناظرة عقدية جرت بينه وبين من يسميهم "علماء العجم"، وهم علماء الشيعة بالدولة الصفوية، وذلك بغرض رفع المكفّرات التي كانت تسبب الشقاق بين الطائفتين السنية والشيعية، وقد طبعت هذه المقدّمة منفردة مرات كثيرة تحت عناوين مختلفة، مثل: "الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية"[2]، أو: "مؤتمر النجف"[3] وذيّل هذا العنوان الثاني بعبارة: "مقتطف من مذكّرات علامة العراق وعماد هذا المؤتمر السيد عبد الله بن الحسين السويدي العباسي". وبعد الفراغ من هاتين المقدمتين، شرع السويدي في سرد أحداث رحلته الحجازية لأداء مناسك الحج، والتي مرت عبر الموصل فالشام ذهابا وإيابا. وهذا الجزء(وخصوصا قسم الذهاب منه) هو الذي استغرق القسم الأكبر من متن الرحلة.

وفي نشرة الأستاذ عماد عبد السلام رؤوف لرحلة السويدي، تمّ حذف المقدمة الثانية المشتملة على مناظرة العجم من قبل المحقق، وذلك من أجل المبرر الذي يصوغه كالتالي عقب الفراغ من المقدمة الأولى المشتملة على ترجمة المؤلف لنفسه(رؤوف، 2003):

هنا ينتهي الفصل الأول من الفصلين اللذين أضافهما المؤلف على كتاب رحلته، أما الفصل الثاني فهو يختص بالمناقشات العقائدية التي دارت بينه بصفته ممثلا عن الجانب العثماني، وبعض العلماء الإيرانيين الذين كانوا بصحبة نادر شاه، ولا صلة لها بالرحلة، فضلا عن أنها تؤلف رسالة مستقلة تماما منها نسخ خطية عدة في خزائن مختلفة، وقد طبعت مستقلة مرات عدة، منها بعنوان (الحجج القطعية على اتفاق الملل الإسلامية)، ومرة بعنوان (مؤتمر النجف). وجميع هذه المناقشات تعبر عن اختلافات مذهبية بحتة، والذي نراه أن المؤلف أقحم هذه الرسالة على رحلته إقحاما، فلا صلة لموضوعها بغاية الرحلة وسياق وقائعها، وعليه فلم نر وجها لإثباتها هنا(ص87).

وقد سبق أن علق المحقق على علاقة المقدمة الثانية بمتن الرحلة في مقدمة التحقيق بقوله(رؤوف، 2003، ص40): "وليس لهذه الرسالة من صلة بالرحلة سوى أن الأحداث التي وصفتها كانت وراء قيام السويدي برحلته".

وبتحليل هذين التعليقين، نستخلص مجموعة المبررات التي يقدمها المحقق لحذف الفصل المتعلق بالمناظرة، والتي يمكن أن نحددها في النقط التالية:

أولا: أن الفصلين الأولين إضافتان للرحلة، وهو ما يفترض أن يمتلك المحقق الدليل على أن للرحلة صورة أصلية مكتملة، تم إلحاق الفصلين المذكورين بها.

ثانيا: أن المناظرة لا صلة لها بالرحلة، ويبدو من خلال تقديم المحقق لهذا الحكم بذكر مضامين المناظرة أنه يريد أن يثبت أنه لا صلة موضوعية بينها وبين الرحلة. وهو ما يرجّحه قوله: فلا صلة لموضوعها بغاية الرحلة وسياق وقائعها. ويستنتج المحقق: أن المؤلف أقحم هذه الرسالة على رحلته إقحاما.

ثالثا: أن المناظرة تؤلف رسالة مستقلة تماما منها نسخ خطية عدة في خزائن مختلفة، وقد طبعت مستقلة مرات عدة.

رابعا: أن هذه الرسالة ليس لها من صلة بالرحلة سوى أن الأحداث التي وصفتها كانت وراء قيام السويدي برحلته.

هذه هي الحجج المقدمة من قبل المحقق لتبرير خياره المنهجي، ولا بد لنا قبل مناقشتها بالتفصيل من ملحوظتين تمسان الانسجام بينها، إذ إن تماسك الطرح المنهجي هو الذي يرفعه لمشروعية المناقشة، في حين أن اختلاله أو تناقضه يضعفه عن هذه المنزلة، ويفتح الباب لتحليله بطرائق أخرى:

الملحوظة الأولى: نلمس تناقضا بين المبرر الثاني الذي ينفي فيه المحقق وجود علاقة موضوعية بين المناظرة والرحلة، وبين المبرر الرابع الذي يثبت فيه أن أحداث المناظرة كانت وراء قيام السويدي برحلته، وهو ما يفضي إلى أن علاقة السببية لا تعتبر عند المحقق علاقة موضوعية، ولن نفيض في مناقشة هذه النقطة هنا لأننا سنقوم بتحليل قيمة هذه العلاقة في العناصر المقبلة.

الملحوظة الثانية: نلمس تناقضا بين المبرر الأول الذي يسند المحقق فيه إلى المؤلف "إضافة" الفصلين إلى رحلته، وبين المبرر الثالث الذي يحاول إثبات استقلال نص المناظرة عن نص الرحلة بحجة أن منه نسخا خطية مستقلة وأنه طبع مرارا مستقلا، هذا مع اعتراف المحقق بأن النسختين اللتين

حقق عليهما الكتاب منقولتان عن نسخة المؤلف مباشرة(رؤوف، 2003، ص ص57-58)، أي من غير واسطة يمكن أن ننسب إليها إقحام هذه الفصول. ويذكر المحقق هنا معلومة مهمة جدا، وهي أن إحدى النسختين، وهي نسخة المتحف البريطاني التي كتبت بخط علي بن ملا طالب البغدادي، تم الفراغ منها في 8 صفر1159، أي بعد عودة السويدي من رحلته بسنة واحدة، وهو ما يرجح أن النسخة الأولى التي كتبت بخط المؤلف والنسخ الأولى التي انتسخت عنها كانت محتوية على نص المناظرة(رؤوف، 2003، ص29). والحقيقة أن المحقق قد حكم على نفسه بإثبات المبرر الأول، حيث إنه وضع نفسه أمام خيارين: إما أن المؤلف قد أضاف الفصلين إلى الرحلة في أول تأليفه لها، فتكون الإضافة المقصودة من المحقق هي الإضافة "الموضوعية"، أي إضافة موضوع إلى موضوع مختلف عنه، وإما أنه أضافهما لها بعد تأليفها، وهنا نحن أمام صناعة تأليف نصي للمؤلف نفسه. وهي عادة قديمة للمؤلفين حيث يرون إدراج عدة أعمال لهم في بناء نصي أوسع يشكل فكرة أشمل.

وأما مسألة وجود نسخ مخطوطة لنص المناظرة وطباعتها مستقلة، فلا تبدو دليلا مقنعا، إذ لا يستقيم الاستدلال بها إلا في حالة إثبات أن النسخة النهائية من نص الرحلة خرج من يد المؤلف خلوا من المناظرة، وهو ما تنقضه المخطوطات المتوفرة، وإلا فإن استنساخ جزء من النص لتميزه بقدر من الاستقلالية أو طباعته مفردا ليس دليلا على استقلال وضعه من المؤلف. فانفصال النصين لا يثبت إلا بوجود النص الأصغر مستقلا عن الأكبر، ووجود النص الأكبر خلوا من الأصغر. ومما يؤكد هذا الطرح أنه ليست "الحجج القطعية" هي النص الوحيد الذي تم استلاله من النفحة المسكية، بل ثمة نص آخر هو مقامة أدبية في آخر الرحلة، وقد ذكر المحقق نفسه أن منها نسخة مستقلة في مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد تقع في خمس أوراق(رؤوف، 2003، 29). وفي عبارة المحقق شيء لافت للنظر حيث يقول: "أدرجها في آخر كتاب النفحة المسكية، وبين أسباب إنشائه إياها". إن هذه العبارة تشي بتصور خاص لبناء نص الرحلة عند المحقق، وكأن هذه النصوص(المناظرة-المقامة) هي نصوص دخيلة على نص الرحلة، تم تركيبها عن طريق الإدراج. هذا إن كان المحقق يستعمل هذا المصطلح بالمعنى المتعارف عليه.

أ-علاقة نص المناظرة بالرحلة:

لعل أول من افترض تساؤل القارئ عن علاقة نص المناظرة بالرحلة الحجازية هو السويدي نفسه. وهذا الذي جعله يقدم مبررات تقديمها بين يدي مقصود الكتاب، وذلك بأسلوب تعليلي واضح حيث يقول(2003): "وأحببت أن أقدّم قبل الشروع في المقصود فصلين، **وإن لم يكونا عن ذلك أجنبيين، أحدهما** في ترجمتي اقتداء بعلماء الحديث... **وثانيهما في السبب الظاهري الذي أوجب هذه الرحلة، ودعا إلى هذه النقلة**"(ص63-64). وينتقل إلى شرح هذا السبب الظاهري في أول الفصل المقصود بقوله(السويدي، 1323ه): "لما يسر الله لي نصرة الشريعة الغراء، وردع أهل البدع والإغراء، **عزمت على حج بيت الله الحرام، شكرا لما ما وفقني لنيل المرام، وما به إصلاح كافة الإسلام، وإجراء الحق على يدي، وإخماد نار الباطل بمباحثتي**.."(ص02). ثم يجعل من هذه العلاقة السببية بين الحركتين مبررا نصيا لعقد فصل خاص بالمناظرة بين يدي القسم السردي المتعلق بالرحلة. ومن هنا نستنتج أن السويدي يحوّل الروابط الفعلية للأحداث الواقعية إلى روابط نصية بين أجزاء عمله، وهو ما يعطي هذه الروابط قيمتها النصية، إذ إنها تسمح لنا بالمرور عبرها إلى الواقع التاريخي للسويدي ولمحيطه.

ويثير الاقتباس الأول الذي أوردناه ملاحظة طريفة، وهي أنه إذا كان السويدي يعلل كتابة المقدمة الأولى الممثلة في الترجمة بالتقاليد الكتابية للرحلة "اقتداء بعلماء الحديث"، فهذا يجعلها غير مرتبطة بالرحلة (باعتبارها موضوعا مجردا، أي غير متعلق بالسويدي خاصة) ارتباطا موضوعيا، في حين أن المقدمة الثانية المتمثلة في المناظرة لا تندرج ضمن هذا التبرير، وبالتالي فإن القارئ مطالب

بالانعطاف إلى السبب الذي اقتضى إدراجها، والذي سيكون مرتبطا برحلة السويدي خاصة. بهذا الاعتبار، فإن حذف المناظرة وإبقاء الترجمة(لو كان للمحقق التدخل فيه) هو إجراء معكوس، وكان الأحرى إبقاء ما له سبب مباشر، وحذف ما ليس له سبب مباشر إلا احترام تقاليد كتابية معينة، بمعنى أنه لا يدخل في بناء موضوع الرحلة.

نخلص من هذا العنصر إلى أن ارتباط نص المناظرة بالرحلة هو ارتباط موضوعي، بررّه المؤلف نفسه، قاطعا بذلك أي مبرر لحذف جزء من هذه الرحلة، هذا طبعا لو كان من حق من يتصدى لإخراج النص التصرف فيه، وهو ما ليس خيارا مطروحا في مناهج التحقيق.

ب-كتابة الرحلة:

من المهم في نظرنا -من أجل الإجابة عن إشكالية دراستنا-، أن نعالج قضية مهمة: متى كتب السويدي رحلته؟ وكيف تمت كتابتها؟ إن المعطيات المعتمدة للإجابة عن هذا السؤال المركب تنقسم إلى معطيات تاريخية تتعلق بترجمة السويدي وببعض المعلومات التي أمكن استخراجها من النسخ الخطية لرحلته، ومعطيات نصية مستنبطة من نص الرحلة نفسها. إذ إن هذا النص بما هو نص سردي قد خطّ لنا مع تتبعه لمسار الرحلة أثرا لمسار إنتاجه. فالنص كما أنه يحكي لنا حركة السويدي فإنه يحكي بصوت خافت؛ ولكنه مستمر؛ حركة كتابته و"تأليفه".

وقبل التفرغ لدراسة المعطيات النصية، سنلقي نظرة سريعة على المعلومات التاريخية التي بين أيدينا عن النفحة المسكية، وأهمها ما جاء في مقدمة التحقيق من أن النسخة المعتمدة لتحقيق الرحلة(نسخة المتحف البريطاني) كتبت بخط علي بن ملا طالب البغدادي، وفرغ منها في 8صفر1159(رؤوف، 2003، ص58)، أي بعد الانتهاء من الرحلة نفسها بأقل سنة واحدة[4]. وهو أقدم تاريخ وقفنا عليه، ومع افتراض أن هذه النسخة منتسخة من نسخة المؤلف، فإن هذا يقرّب أكثر بين الفراغ من تأليف الرحلة، وبين الرحلة نفسها.

وقد وقع المحقق فيما يبدو لنا في مزلق علمي، حين نسب إلى محمد خليل المرادي القول بأن السويدي وضع مؤلفاته بعد رجوعه إلى بغداد من رحلته(رؤوف، 2003، ص40)، والظاهر أن المحقق اغتر بظاهر عبارة المرادي(1997، 3م، ص85): "ثم رجع إلى بغداد وألف المؤلفات النافعة". وليس مقصود المرادي ذلك البتة، وإنما عبارته على الفصل، فقوله (ثم رجع إلى بغداد) عطف على أخبار رحلته الطويلة، وقوله: (وألف المؤلفات النافعة) استئناف لمقصد آخر من مقاصد الترجمة، فاقتضى التنبيه.

وأما ما يتعلق بالمعطيات الداخلية النصية للرحلة، فإنها أثرى وأقوى دلالة على مسار كتابة النص، وسنناقش أربع نقط نراها مهمة فيما يتعلق بهذا الموضوع.

أولا-المنطلق: من المهم أن نعلم أن نص الرحلة بدأ بمسودة، وإنما تم تبييضها بأخرة، وهذا الذي يفسّر وجود الإحالة البعدية فيها. فقد ذكر السويدي أنه كتب من دمشق عدة رسائل لعائلته، وبعض الشخصيات التي خلّفها بحلب، ثم كتب تعليقا مهما جدا(2003): "لكني ما قيّدتها **في المسودة** لضيق الوقت، مع أن غالبها مشحون بالسجع البليغ والنظم الحسن"(ص233). ويمكننا أن نتصور أن المسودة كانت تحتوي على نظام شبه اليوميات، بالإضافة إلى اشتمالها على نصوص منقولة أو منسوخة كما سيأتي بينه. كما أن هذا التعليق يربط بين شكل المسودة وحالتها وبين ظروف السفر التي قد تمنع من استيفاء الصورة المكتملة للنص، وسيأتي في النقطة الرابعة أمثلة من هذا التأثير الظرفي في الكتابة.

ثانيا-يبدو أن السويدي لم يكتف بالعزم على كتابة رحلة حجازية، بل أظهر هذا العزم وربما جزءا من العمل لبعض من لقيهم من الأعلام، وهذا التفصيل أوقد رغبة بعض هؤلاء الأعلام في أن يكون لهم حضور في نص الرحلة، ففي مراسلة للسويدي بحلب مع قاسم البكره جي، يعلن المراسل رغبته في أن تشتمل الرحلة على بعض أشعاره، كما هو واضح من هذا المقتطف(2003): "وأرسل لي بعض أبيات من نظمه أَحَبَّ أن أودعها في الرحلة"(ص185). وقد شغلت هذه الأشعار حوالي ثلاث صفحات من نص الرحلة، وهو ما يضيء لنا جانبا مهما من جوانبها، وهو الجانب التعريفي الإشهاري، فإن هذا الطلب يعد عملا تسويقيا للإنتاج الأدبي الشخصي، وربما المحلي، من خلال هذه النصوص "المرتحِلة".

ثالثا-كان السويدي يُلحق باستمرار زيادات في بعض المواضع من الرحلة بحسب المستجدات، وهذا أيضا يفسر لنا الإحالات البعدية، فمن أمثلة ذلك إحالته على بحث في التفسير متعلق بعبارة للبيضاوي بقوله(2003): "وسيأتي الكلام عليه أيضا"(ص119)، وقوله عن نهر عين الذهب(2003): "وقد مدحه الأديب مصطفى أفندي البابي في موشح، وسأذكره عند ذكر ضيافة الشيخ السيد محمد الطرابلسي في بستان طه زاده"(ص121).

ومن أهم هذه الإلحاقات، تلك التي زادها في رحلة العودة، ولكنه ألحقها في النص عند محطات رحلة الذهاب، وأمامنا هذا المثال المثير، حيث يعلق السويدي على مدينة حلب في رحلة عودته، أي بعد أشهر من دخولها أول مرة، غير أنه في الخطية النصية فضل أن يكتب هذا التعليق متصلا بحديثه الأول عن حلب، وهو ما اقتضى منه أن يتدخل لرفع الالتباس السردي عن البنية النصية لرحلته، وفي الوقت نفسه ليرفع الالتباس التأويلي عن الفكرة(السويدي، 2003):

واعلم -أيها الواقف على هذه الرحلة- أني كتبت وقائع حلب وأنا بدمشق الشام ولا لي نية بالعود إلى حلب، فكل ما سطرته في مدح أهاليها فهو والله الذي ظهر لي منهم ببادي الرأي، والغريب -كما قيل- أعمى ولو كان بصيرا، ثم لما منّ الله بالعود إليها رأيت الأمر انعكس عكسا كليا، ولولا الخشية مما قيل: من مدح أو ذم كذب مرتين، لأطلقت عنان القلم في ما ظهر لي. وقد أخبرني بعض من أختبرهم من أهالي حلب حيث قال: يا شيخ لا تغتر بأهل حلب! فإن هذه لهم عادة قديمة، إنهم يكرمون الغريب ويوقرونه ما دام جديدا، فإذا استمر عندهم مدة ولو قليلة قلوه وملوه لغير سبب، وقد صح عندي هذا بعد رجعتي إلى حلب(ص208).

وقد تكررت هذه التقنية في مناسبات أخرى حيث يتم إدماج وصف مرحلة الرجوع في السياق النصي لمرحلة الذهاب، كما في حديث السويدي عن مرحلة الأحساء(2003، ص293)، وعن مرحلة ديار ثمود(2003، ص299).

ويشبه هذه الحالة حالة أخرى يتم فيها مقارنة وصفية لموضع ما في سياقه النصي، بموضع آخر يأتي بعده، فقد قارن السويدي(2003، ص115)) مثلا منارة مسجد دنيسر عند الحديث عن مرحلة دنيسر بمنارة مسجد حلب التي كان حينئذ لم يرها ولم يدخلها بعد. ويمكننا أن نقدم افتراضين قويين لتفسير هذه الحالات: إما أن السويدي كان يكتب الرسالة بصورة خطية ثم يلحق ما يستجد له تباعا، وإما أنه كان يقيد المعلومات يوميا في حالة عدم التمكن من صياغة النص إما بسبب السفر وإما لضيق الوقت، ثم ينظم النص عند وقوفه في المحطات الكبرى حيث تتوفر له ظروف الكتابة والتحرير. ومما يقوي هذا الافتراض الثاني ما سبق إيراده من ذكر المؤلف أنه كتب وقائع حلب بدمشق الشام(2003، ص208).

رابعا-يمكن تقسيم مواد الرحلة إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المواد الوصفية، وتمثل القسم الوصفي من الرحلة، حيث وصف السويدي المراحل والبلدان والمدن والمسافات والعمران والبيئة، والتركيبة البشرية وغير ذلك من موضوعات الوصف، ويمكن أن ندرج فيها كذلك المواد السردية، التي ذكر فيها الأحداث والوقائع واللقاءات والمسارات والتواريخ وغير ذلك من العناصر السردية. وتتميز هذه المواد بأنها كتبت بصورة مباشرة أو مقاربة للأحداث والمشاهد.

النوع الثاني: المواد الذاكرتية، التي اعتمد فيها المؤلف على ذاكرته في استحضار معلومات معينة أو نصوص معينة، وخصوصا تلك التي عرضت في أثناء المناقشات والمناظرات والمحاورات المبثوثة على طول النص. ويلفتنا من هذه المواضع ما جاء في ذكر مباحثة علمية(السويدي، 2003):

ومما وقع السؤال عنه عبارة الملّا عصام عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً﴾ (القرآن الكريم، سورة البقرة: 58). فإنه هناك نقل كلام المحقق التفتازاني معترضا، ويفهم من عبارته الجواب عن الاعتراض المذكور وهو غير ما اعترض به التفتازاني فلينظر هناك، وقد أجبت عنه بجواب استحسنه الجميع، **ولم تحضرني عبارة عصام هذا الوقت**، وإلا لكنت ذكرت الجواب بعد تشخيص الإشكال(ص145).

النوع الثالث: المواد النصية، وهي تمثل قسما كبيرا من مساحة الرحلة، وتعطيها طابعيها الأدبي والتوثيقي، حيث اعتمد المؤلف على إدماج الكثير من النصوص التي كتبها في أثناء رحلته أو قبل ذلك أو تحصل عليها من خلال المراسلات، وبملاحظة هذه المواد يمكننا أن نستخلص تقنيات إدماجها في سياق الرحلة، حيث اعتمد السويدي إيرادها كاملة، ككثير من الرسائل والنصوص الشعرية. وبالمقابل فقد اجتزأ السويدي بعض المقاطع من الرسائل مكتفيا بإجمال ما بقي(2003، ص195). وقد يحدث أن يشير إلى رسالة معينة مع ترك إيرادها، مبررا ذلك بخوف الإطالة(ص188)، أو بعدم أهمية التفاصيل(ص180)، أو بضيق الوقت(ص114، 142)، أو بالملل الناشئ عن طول السفر(ص327، 329).

والذي يهمنا من كل هذا التحليل أن نعلم أن كتابة الرحلة لم يتم بصورة خطية ساذجة، وإنما كان عملية تركيبية معقدة جدا، وتعقيدها مبني على التداخل والاشتراك الإحالي، حيث انطلقت من مجموعة مواد نصية غير متجانسة، من أجل الوصول إلى بناء نص وفق استراتيجية مسبقة، جلّينا جانبا منها، وسنحاول فيما يلي أن نجلي جانبا آخر لا يقل عنه أهمية، بل ربما يفوقه في بعض الجوانب التي تهمنا في دراستنا هذه.

ج-تغلغل مكون المناظرة في نص الرحلة.

أولا: ثلاث فرضيات عن علاقة النص بالمسار.

هناك تساؤل يحيط برحلة السويدي إلى الحج، ونريد بالرحلة هنا حركته الفيزيائية من بغداد إلى مكة. وهو: لماذا لم يسلك السويدي الطريق الجنوبي الغربي الذي يمر عبر الكوفة، ويخترق بلاد نجد وصولا إلى المدينة النبوية من جانبها الشمالي الشرقي، كما كان شأن قوافل الحج العراقية في ذلك الزمان؟[5] وعوض ذلك فضل سلوك الطريق الشمالي الغربي نحو الموصل، ثم باتجاه حلب في شمال الشام[6]، لينزل بعد ذلك إلى حمص فدمشق، ويسلك طريق الحاج الشامي؟ مع أن المسافة أطول بكثير من الطريق الجنوبي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال سيكون لها -في اعتقادنا- دور في فهم بنية نص "النفحة المسكية"، وبالتالي ستسهم في فهم الاختلال النصي الناشئ عن حذف نص المناظرة. وسنضطر إلى الذهاب والإياب مرارا بين فهم أسباب هذا الخيار في المسار الفيزيائي، وفهم أثرها في النص.

يمكننا ابتداء أن نضع **فرضية أولى** عن هذا الاختيار، وهي افتراض السويدي أن خط السير الشمالي أكثر أمنا(أو بعبارة أصح أقل خطورة) من الخط الجنوبي، من جهة قلة المخاطر، وتقارب المراحل، وتوفر نظام البريد، وتوفّر نقط الماء الضرورية بالنظر إلى وسائل السفر ومدته في ذلك الزمن، كما أن المرور عبر الشام سيمكّن من الالتحاق بقافلة الحج السلطانية الآتية من إستانبول والتي هي إحدى القافلتين "الرسميتين": قافلة دمشق وقافلة القاهرة(فاروقي، 2010، ص60)، اللتين من المؤكد أن توفرا حماية أكبر للحجيج بفرقة الجيش المرافقة لها. نستند في هذه الفرضية إلى المعرفة بظروف الحج كما وصفتها ثريا فاروقي(2010، ص60، 72) في عملها المهم: "حجاج وسلاطين" الذي درست فيه الحج وما يتعلق به مؤسساتيا في العصر العثماني.

ولكننا سنضع بجانب هذه الفرضية **فرضية ثانية** لن نعتبرها مناقضة، ولكنها أكثر خصوصية، وهي متعلقة بنقطة الانطلاق: بغداد، ونقطة الوصول: مكة، وتتعلق بعلاقة السويدي بالسلطة؛ سواء تعلق الأمر بالسلطة المحلية ببغداد أم بالسلطة المركزية بإستانبول. وسيتبين لنا أن لقاء السويدي بشريف مكة لم يكن عديم الصلة بهذه العلاقة. وبالتالي فنحن أمام فرضية ثانية هي أن لرحلة السويدي حيثيات دبلوماسية.

ولكن تَعرضُ لنا **فرضية ثالثة** لا تقل في إمكانها عن الفرضيتين الأوليين، وهي أن يكون السويدي العالم الأديب أراد أن يكون لرحلته جانب علمي ثقافي، وأن يتأسى بعادة العلماء الرحالة من قبله الذين كتبوا في الرحلة خصوصا، وقد نص في مقدمة الفصل المتعلق بترجمته(2003، ص63-64) على فكرة التأسي بالعلماء السابقين، وهي كما يمكن ملاحظته في القرون المتأخرة فلسفة في التأليف، حيث تحولت خيارات التأليف إلى محاكاة مستمرة. وكان لا بد حينئذ من مسار يكون مثريا للرحلة من جهة المباحثات والمناظرات واللقاءات العلمية وأشكال التواصل العلمي والثقافي المختلفة، وهو ما سيحققه المرور بالشام.

وسنركز اهتمامنا فيما بقي من العرض على الفرضية الثانية، من خلال دراسة تغلغل ما أسميناه: **مكون المناظرة** في نص الرحلة، وقد فضلنا التعبير بمكون المناظرة للإشارة إلى المناظرة باعتبارها تيمة) (theme، بالإضافة إلى اعتبارها نصا، ولذلك فإن هذا التغلغل كما سنراه، سيكون تغلغلا إحاليا أكثر منه اقتباسيا.

ثانيا: مكون المناظرة في محطات الرحلة.

يمكن لكل من يقرأ رحلة السويدي أن يكتشف أهمية مناظرة العجم في حياته، وفي سجل إنجازاته، كما يمكن أن يكتشف أهميتها عند السويدي نفسه، فهو يرى فيها إنجازا كبيرا على الصعيدين الديني والسياسي، وهما جانبان لا ينفصلان تحديدا في هذه الواقعة، لأن انتصار السويدي في المناظرة المذهبية كان انتصارا للجهة السياسية التي خوّلته، وللموقف الذي أرادته من المناظرة. ويرجع سبب المناظرة كما يذكر السويدي نفسه إلى المطالبات التي وجهها شاه العجم إلى السلطنة العثمانية: والتي تتركز في أربع نقط: تسليمه حدود الأراضي التي يرى أنها من حقه تاريخيا، واعتبار المذهب الجعفري مذهبا فقهيا خامسا، وإعطاؤه ركنا خامسا في الكعبة(أي محرابا خامسا للصلاة يمثل المذهب[7])، وتوليه الطريق العراقي للحج(السويدي، 1323ه، ص04). فيمكن بسهولة ملاحظة التداخل

الشديد بين المطالب السياسية والدينية، وخصوصا المطلبين الثالث والرابع، اللذين يتم بهما توطيد الحق السياسي عن طريق الدين.

ومن أجل ذلك، فإن المسار الذي اتخذته المناظرة كان يصب في صالح الموقف العثماني: ديانة وسياسة، وهنا تبدأ وظيفة مكون المناظرة داخل الرحلة في التجلي من خلال حضورها المتتابع، حيث نجد استحضارها داخل النص باستراتيجيات مختلفة نلخصها فيما يلي:

استراتيجية الحكي: تم ذلك من خلال استدعاء السويدي لحكاية تفاصيل المناظرة من قِبلِ شخصيات لقيها في أثناء رحلة، مثل حسن أفندي المنصوري، المعروف بحليم زاده، المدرس بمدرسة كاتب العربية، الذي لقيه السويدي في محطة الرها، حيث يقول(2003): "والتمس منا أن ننقل له مذاكرتنا مع علماء العجم، فنقلناها وهو مصغ متأدب غاية الأدب"(ص118). ونلاحظ أن السويدي يشفّر رسالة مقتضاها أن أخبار المناظرة قد سبقته إلى الأمصار، وأن العلماء كانوا متشوفين لمعرفة تفاصيلها، ويصوّر السويدي تقييمهم لها بوصف حيثيات التلقي وهو التأدب في الإصغاء إليها. ولا ندري هل كان "النقل" المذكور حكاية شفاهية، أم قراءة من نص مكتوب كان السويدي يحمله معه؟

استراتيجية التنويه: ليس من العسير استنتاج أن السويدي كان شخصا مقدِّرا لمواهبه العلمية والعقلية والحجاجية، ولم يكن يخفي ذلك، بل كان لا يفوت فرصة للتنويه بهذه المواهب من خلال توثيقه لتفوّقه في المناظرات وبذّه محاوريه في البحث والاستحضار والفهم، وأمثلة ذلك من الكثرة في رحلته بالقدر الذي يصعب حصره. ومن استراتيجياته في استحضار مكون المناظرة إثبات الشواهد النصية المنوهة بدوره من خلال مناظرة العجم في حماية بيضة الدين والدفاع عن المذهب السني، فنجده ينقل لنا مقتطفا من رسالة أرسلها إليه ولده يدبّجها بالتنويه بالوالد العالم واصفا إياه بقوله(2003): "من أذعن لكثرة بحثه النادر شاه العجم، فظل طرفه ساهيا ولسانه قد انعجم، فسعى بالصلح بين الدولتين، فحاز الفخار والنجح في النشأتين، وحمل الشيعة على الإقرار بخلافة الصديق، وأنه الأفضل الأحق على التحقيق"(ص252). ونرى أن ولد المؤلف مدرك للتداخل الشديد بين الدورين الديني والسياسي اللذين نجح والده في أدائهما، واللذين بوآه منزلة خاصة بين علماء العراق ومفتيه بتحمله هذه المسؤولية المزدوجة[8].

وفي نص آخر يؤكد السويدي اعتراف الجهات العالِمية له بهذه الفضيلة، ويجتهد في توثيقها من خلال نص إجازة الشيخ علي الدباغ له، المتضمنة إشارة إلى واقعة النجف حيث ينوه بالمُجاز(السويدي، 2003): "جناب سيدنا ومولانا الشيخ عبد الله أفندي السويدي، الذي ساد أهل السواد، وألزم العجم ولمذهب أهل السنة أشاد، وأفحم بمباحثاته أهل الغواية، وأنى رفعوا راية علم نقلي أو عقلي كان على آية تلك الراية"(ص276). ويحيط السويدي هذا النص بتفعيل الأهمية، حيث يذكر أن الشيخ الدباغ لما لم يتيسر له كتابة الإجازة للسويدي في أثناء نزوله بحلب، حرص على إرسالها إليه بعد حلوله بدمشق(السويدي، 2003، ص275).

استراتيجية الإيحاء: يتمادى السويدي في استحضار مكون المناظرة أو واقعة النجف كما سماها باستراتيجيات مختلفة، ومن هذه الاستراتيجيات الإيحاء، حيث يشير إليها ويحرك تذكّرها في نفسية القارئ عن طريق الإغضاء من قيمتها إلى درجة النفي: نفي النتائج، لا نفي الوقوع، فيقول واصفا حاله والشعور الذي تملكه أمام القبر النبوي(2003): "فازداد خوفي وبكائي، وتضاعف خجلي وحيائي، خشية أني قصرت في إقامة شريعته وإحياء سننه، فلا سنة أحييتها، ولا بدعة أمتها، لا نشرت أحكامه بين أمته، ولا أتعبت نفسي في تشييد ملته"(ص305). وهنا يجد القارئ نفسه مدفوعا إلى مزيد من الجهد التأويلي لفهم هذه العبارات، ليستنتج أنها تحيل على سبيل التحقير إلى جهود السويدي الفعلية التي قدمها في سبيل إقامة الشريعة وإحياء السنة، فهي تمثل المعادل القيمي لقوله في صدر

المناظرة(1323ه): "لـمّا يسّر الله لي نصرة الشريعة الغراء، وردع أهل الباطل والإغراء، عزمت على حج بيت الله الحرام، شكرا لما وفقني لنيل المرام، وما به إصلاح كافة الإسلام، وإجراء الحق على يدي، وإخماد نار الباطل بمباحثتي"(ص02). فالسويدي لا يناقض نفسه، وإنما يعتمد استراتيجية حجاجية دقيقة مبناها على التذكير بفضائله وأعماله في سياق التهوين من شأنها، والتحقير من أمرها.

استراتيجية الإدماج: آخر استراتيجية تم من خلالها استحضار مكون المناظرة في رحلة السويدي هي استراتيجية الإدماج، حيث لا تظهر المناظرة في شكل نصي ولا في شكل إحالي، وإنما في صورة استلهام، كما سنحاول إيضاحه في هذا العنصر. يقف السويدي في محطة مكة مع حادثة مهمة، وهي استدعاؤه من قِبل شريف مكة الذي يصفه(2003، ص325) بأنه حنفي المذهب متعصب على الشيعة، ومع أن الاستدعاء في صورته الظاهرة كان استضافة وإكراما، فإن السويدي ينعطف بالكلام سريعا إلى موضوع الحديث والمفاوضة، حيث يروي(2003، ص325) إعلان شريف مكة له علمه بتحركات العناصر القادمين من جهة مملكة العجم في مكة ومراسلاتهم لأشراف مكة وأعيانها. هذه الأحداث التي تؤكدها ثريا فاروقي(2010، ص212) من وجهة تاريخية، حيث تشير إلى أن الحجاج الآتين من قبل بلاد العجم(رعايا شاه إيران) كانوا يحاولون التأثير علنا على الأحداث في مكة المكرمة أو بطريقة خفية، هذا إذا لم نقل شيئا عن وجود جواسيس محتملين.

ثم ينقل السويدي(2003، ص325) عن شريف مكة أن نصر الله الكربلائي القادم بهذه المراسلات يتصدر للصلاة بالشيعة في مقام إبراهيم، وهو ما يتقاطع مع مطالب شاه العجم التي سبق ذكرها في مقدمة واقعة النجف(السويدي، 1323ه، ص04). ويتبع الشريف ذلك بإعلانه ولاءه الديني وتجديد بيعته للسلاطين العثمانيين وبراءته من التبعية لمملكة العجم مذهبيا وتاريخيا، كما يعلن للسويدي مودته وإعجابه بأحمد باشا وزير بغداد(السويدي، 2003، ص326).

إن هذه الموضوعات التي تطرق لها شريف مكة في حواره مع السويدي ليست من الناحية التاريخية بالضرورة نتائج لمناظرة العجم، ولكن السويدي يضعها في سياق نصي يستلهم المناظرة ويظهره كأنه "انعكاس" لها. فإعلانات هذه المحاورة هي التفعيل السياسي لنتائج المناظرة، وإنه لمن المثير أن يختار شريفُ مكة السويديَّ خصوصا ليعلن له كل هذه المواقف، لو لم يكن على دراية بواقعة النجف أولا، ثم لو لم يكن على دراية بالمنزلة الدينية والسياسية للسويدي من وزير بغداد، وبالتالي من السلطة المركزية للعثمانيين، وهو ما يضمن له أن تتحول هذه المحاورة إلى رسالة دبلوماسية سينقلها السويدي إلى بغداد.

وهكذا؛ يكون مكوّن المناظرة جزءا مهما له أصداؤه داخل نص الرحلة، وخصوصا في هذا المقطع الأخير، وسواء كان نص المناظرة من أول الأمر جزءا من نص النفحة المسكية، أو تم إدراجه من قِبَل المؤلف في مرحلة من الكتابة، فإنه تحول إلى جزء مرجعي للخروج بفهم كلي للنص، ولبناء القدرة على تأويل بعض أجزائها التي وقفنا عندها بالتحليل. وبالمقابل، فإن حذف هذا المكون ستكون له آثاره العكسية التي ستقلل من قيمة هذه الأجزاء ودورها في فهم الرحلة باعتبارها نصا، وباعتبارها حدثا تاريخيا، وهو ما يسيء في تقديرنا لدراسة الرحلة أدبيا وتاريخيا في الوقت نفسه.

***نتائج الدراسة:**

انطلقنا في دراستنا هذه من إشكالية أثر إسقاط جزء من النص لخيار منهجي -أيا كانت أسبابه- في اختلال البناء النصي، وتوسلنا للإجابة عن هذا السؤال إجراءين: أولهما تحليل طريقة كتابة نص رحلة السويدي وكشف تعقد بنيته النصية، وبالتالي بنيته الخطابية، والثاني دراسة ما أسميناه تغلغل مكون المناظرة، وهي الجزء المحذوف، في نص الرحلة. وهدفْنا أولا إلى إثبات أن الخطية النصية ليست

البعد الوحيد لبنية نص النفحة المسكية، وبالتالي فلا يمكن تجزئة النص خطيا، ثم هدفنا إلى إثبات أن أي جزء مقطعي من النص يمد شبكة من الإحالات والتواشجات مع أجزاء أخرى، وهي إحالات وتواشجات سيؤدي قطعها إلى تمزق داخلي للنص، وإلى اختلال في تقييم عناصر الخطاب ضمن استراتيجياته الحجاجية.

إن صناعة التحقيق ترجع في جزئها الأعظم إلى مدلولها اللغوي، وهو البحث عن "حقيقة" ما كتبه المؤلف ، وأما الحكم القيمي أو النقدي على ما كتبه فتلك صناعة أخرى، يجب أن تساير النص وتحاذيه، ولكن لا يحق لها البتة التدخل في نصيّته زيادة أو نقصا أو تغييرا. ويبقى أن نتساءل في ختام كلامنا عن قضية لعلها تفتح الباب لدراسة أوفى وأعمق: إذا كانت مبررات الحذف التي درسناها إلى الضعف والوهاء أقرب منها إلى الخيار المنهجي المعتبر، فهل يمكن أن يكون للقرار أسباب ومؤثرات خارجة عن العلم وداخلة في الإيديولوجيا؟ وهل يمكن أن يكون ذلك عن جهات تتجاوز المحقق كالجهات الناشرة أو الممولة؟ ها نحن نعين زملاءنا على اقتحام تحقيق علمي لعله يكون له دور في حماية الحق المعنوي للثقافة في قابل الأيام.

المراجع:

-أندره ريموند(2007). حلب في العصر العثماني من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. (ترجمة ملكة أبيض). دمشق: منشورات وزارة الثقافة. (الكتاب الأصلي منشور1998).

-بشار عواد معروف(2004). في تحقيق النص: أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

-ثريا فاروقي(2010). حجاج وسلاطين الحج أيام العثمانيين. (ترجمة أبو بكر أحمد باقادر). بغداد: منشورات الجمل(الكتاب الأصلي منشور1990).

-جمال الدين ابن ظهيرة(1997) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف(ط05). دب: دنا.

-عباس هاني الجراخ(2012). مناهج تحقيق المخطوطات. عمان: دار صفاء.

-عبد الله بن الحسين السويدي(1323ه). الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية. القاهرة، المكتبة الحلبية.

-عبد الله بن الحسين السويدي(2003). النفحة المسكية في الرحلة المكية(عماد عبد السلام رؤوف، محقق). أبو ظبي: المجمع الثقافي.

-عبد الهادي الفضلي(1982) تحقيق التراث. جدة: مكتبة العلم.

-علي كامل حمزة السرحان(2013). قافلة الحج العراقي وأهميتها في العهد العثماني. مجلة كلية التربية الأساسية بجامعة بابل، (12)، 86-105.

-فرانسوا راستيي(2010). فنون النص وعلومه. (ترجمة إدريس الخطاب). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر. (الكتاب الأصلي منشور2001).

-كلاوس برينكر(2010). التحليل اللغوي للنص: مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج(ط02). (ترجمة سعيد حسن بحيري). القاهرة: مؤسسة المختار. (الكتاب الأصلي منشور1985).

-محمد خليل المرادي(1997). سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر(محمد عبد القادر شاهين، محقق). بيروت: دار الكتب العلمية.

-ناصر الموافي(1995). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري. مصر: دار النشر للجامعات المصرية.

-Laufert, R. (1972). Introduction à la textologie: vérification, établissement, édition des textes. Paris: Librairie Larousse.

[1]–من أجل مزيد من المعلومات عن علاقة علوم النص بتحقيق المخطوط في أوروبا ينظر(Laufert, 1972, pp5-10).

[2]–طبع بالمكتبة الحلبية بمصر سنة1323هـ.

[3]–نشره محب الدين الخطيب، وطبع بمطبعة البصري ببغداد.

[4]–أثبت السويدي(2003، 340) تاريخ دخوله حلب في رحلة العودة يوم 5 ربيع الأول من سنة 1158هـ، ولم يقيد تاريخ دخوله بغداد. وفي كل الأحوال فإن بين دخوله بغداد وبين تاريخ الفراغ من النسخ المذكور أقل من سنة.

[5]–لمزيد من التفاصيل عن قوافل الحج العراقية وطرقها المسلوكة انظر(السرحان، 2013، ص89).

[6]–لمزيد من التفاصيل عن دور حلب في قافلة الحج السلطانية انظر(ريموند، 2007، ص295).

[7]–كان المسجد الحرام في أثناء السلطنة المملوكية العثمانية مشتملا على أربعة محاريب يؤم الناس بها أئمة المذاهب الفقهية الأربعة. ينظر(ابن ظهيرة، 1979، ص130).

[8]–يشير السويدي(1323هـ، ص06) إلى هذا وهو يذكر تخوّفه الأول من تحمل هذه المسؤولية، وترشيحه المفتيين الحنفي والشافعي لها، وإصرار الوزير أحمد باشا عليه لإرساله.